

الكتاب في عمارة مدينة طرابلس القديمة (النشأة - الأدوار - التكوين المعماري)

د. عادل المبروك المختار الفار

أستاذ مشارك بقسم الآثار / مدرسة الإعلام والفنون / الأكاديمية الليبية

adel.alfar@academy.edu.ly

ملخص الدراسة :

تتناول هذه الدراسة أحد المنشآت التي لم تلقَ اهتماماً كافياً من قبل البُحاث الأثريين في العمارة الإسلامية عموماً، وذلك بسبب عدم وجود ملامح تخطيطية ثابتة لها، هذه المنشأة هي الكتاب، فمنذ ظهورها في العمارة الإسلامية كفكرة كان الجانب الوظيفي هو الأهم دائماً، وربما ما كانت تؤديه من أدوار اجتماعية مهمة هو ما جعلها أكبر من أن تلتزم بشكل تخطيطي واحد.

في هذا البحث حاولت إلقاء الضوء على نشأة الكتاب وأدواره التعليمية والاجتماعية، وكذلك علاقة وظيفته بعدم وضوح الشكل المعماري له، مع تناول أبرز نماذج في مدينة طرابلس القديمة والتي ورغم شهرتها وقيمتها لدى السكان على مر العهود الإسلامية إلا أنه من الواضح جداً تواضعها من الجانب المعماري والفني، مع ملاحظة وجود فكر أو نمط معماري واحد يجمع بين أغلب تلك النماذج.

الكلمات المفتاحية: كُتّاب - دور اجتماعي - مخطط - تواضع معماري

Study Summary:

This study deals with one of the facilities that did not receive sufficient attention from archaeological researchers in Islamic architecture in general, due to the lack of fixed planning features for it. This facility is the **Kuttab**. Since its appearance in Islamic architecture as an idea, the functional aspect has always been the most important, and perhaps the important social roles it played are what made it too big to be bound by a single planning form. In this research, I tried to shed light on the origin of the **Kuttab** and its educational and social roles, as well as the relationship of its function to the lack of clarity of its architectural form, while addressing its most prominent models in the old city of Tripoli, which, despite its fame and value among the population throughout the Islamic eras, is very clearly modest from the architectural and artistic side, noting the presence of a single architectural thought or style that combines most of these models.

Keywords: Kuttab - Social role - Planner - Architectural modesty

مقدمة:

يعتبر الكتاب أحد المنشآت التي لم تلقَ اهتماماً كافياً من قبل البُحاث الأثريين في العمارة الإسلامية عموماً، وذلك بسبب عدم وجود ملامح تخطيطية ثابتة لها، هذه المنشأة هي الكتاب، فمنذ ظهورها في العمارة الإسلامية كفكرة كان الجانب الوظيفي هو الأهم دائماً، وربما ما كانت تؤديه من أدوار اجتماعية مهمة هو ما جعلها أكبر من أن تلتزم بشكل تخطيطي واحد. في هذا البحث سأحاول إلقاء الضوء على نشأة هذه المنشأة وأدوارها التعليمية والاجتماعية، وكذلك علاقة وظيفتها بعدم وضوح الشكل المعماري لها، مع تناول أبرز نماذجها في مدينة طرابلس القديمة والتي ورغم شهرتها وقيمتها لدى السكان على مر العهود الإسلامية إلا أنها كانت دائماً تتميز بالتواضع المعماري والفني، مع ملاحظة وجود فكر أو نمط معماري واحد يجمع بين أغلب تلك النماذج.

أهمية البحث:

تأتي أهمية هذه الدراسة من كونها تتطرق الى موضوع لم يلقَ اهتماماً كبيراً في الدراسات الأثرية بمدينة طرابلس القديمة، وذلك بسبب عدم وضوح شخصيته المعمارية وندرة المعلومات التي تُعنى بتأصيل الكتاب وتحديد ملامحه المعمارية والفنية .

أهداف الدراسة:

يمكن تحديد أهداف هذه الدراسة فيما يلي :

- تسليط الضوء على هذه العمارة المهمة التي كان لها دور كبير في دفع عجلة ازدهار الثقافي في المجتمعات الإسلامية عامةً وطرابلس القديمة في العصر العثماني على وجه الخصوص.
- تحديد ملامح نشأة هذه المنشأة والخطوات التي ترتب عليها هذا الاستقلال المعماري.
- تتبع التكوين المعماري والفني للكتاتيب في مدينة طرابلس القديمة خلال العصر العثماني ومحاولة إيجاد ملامح مشتركة تساعد على معرفة الفكر المعماري الذي حدد أشكالها .
- معرفة أدوار الكتاب المختلفة التي لعبها في مجتمع المدينة القديمة بطرابلس .
- دراسة أهم نماذج هذه المنشأة في مدينة طرابلس القديمة .

تساؤلات الدراسة :

- ما هو الكتاب ؟ وما هي أهم وظائفه ؟
- كيف نشأ الكتاب؟ وما هي ظروف استقلاله معمارياً عن المسجد؟
- هل لوظائف الكتاب علاقة ببساطة تكوينه المعماري؟
- هل تعارضت وظائف الكتاب مع المنشآت الأخرى التي تؤدي وظائف مشابهة كالمساجد والمدارس؟
- هل هناك تشابه في التكوين المعماري بين نماذج هذه المنشأة في مدينة طرابلس القديمة؟

منهجية الدراسة:

- لتحقيق أهداف الدراسة والإجابة على تساؤلاتها سيتم اتباع العديد من المنهجيات،
- المنهج التاريخي بغرض تتبع ظروف النشأة ومراحل التطور وصولاً إلى العصر العثماني.
 - المنهج الأثري والذي يعتمد على الوصف الميداني لنماذج الدراسة، وتحليل بيانات الوصف من أجل تحديد ملامح الشخصية المعمارية لتلك النماذج، والمقارن لمعرفة أوجه التشابه والاختلاف بينها.
- يقول ابن منظور: - " المكتب: موضع الكتب، والمكتب والكتاب: موضع التعلم، والجمع كتابات أو مكتبات"¹، وقد عرفه أهل العلم بشؤون القرآن وعلومه أنه الجزء المخصوص في طرف المسجد أو ناحية منه، ويقال فيه أيضاً المكتب، وفي تعريف بعض المصادر اللغوية الأخرى للكتاب ورد في المعجم الوسيط: - "الكتاب : مدرسة صغيرة لتعليم الصبيان القراءة والكتابة وتحفيظهم القرآن، وجمعها كتابات"²، أما في مختار القاموس فقد ورد أيضاً أن المكتب أو الكتاب كلاهما موضع التعليم³.
- ويُعد الكتاب من أقدم المراكز التعليمية عند العرب منذ فترة ما قبل الإسلام، حيث قام بدايةً بهدف تعليم الصبيان القراءة والكتابة، وكان يتخذ من منزل المعلم في العادة مركزاً له حيث يقوم المعلم بتخصيص حجرة في بيته لهذا الغرض، وقد استمر الكتاب في وظيفته تلك حتى بعد مجيء الإسلام، والتغيير الوحيد الذي طرأ عليه آنذاك هو إضافة تحفيظ القرآن الكريم وتعليم أصول الدين إلى قائمة المهام التي كان يقوم بها⁴، وقد حرص الرسول عليه السلام على نشر حلقات العلم التي تُعنى بتعليم الصبية، فقد أمر أصحابه بإلحاق أبنائهم بها، وحتى بعد وفاة الرسول عليه السلام لم يفتر التعليم في الكتابات، فقد اعتنى خلفاؤه بهذا الأمر وشجعوا عليه، فهذا الخليفة عمر بن الخطاب مثلاً كان يعطي

الناس في المدينة من بيت مال المسلمين بمقدار ما تعلموه من القرآن، وكان يشرف بنفسه على نشر الكتابات وحلقات العلم في مختلف أمصار الدولة الإسلامية⁵.

نشأة وتطور الكتابات :

الكتاب كمنشأة معمارية لا يمكن الجزم بوقت ظهورها في عمارة المدن الإسلامية، فالثابت أن وظيفة تعليم الصبيان في بداية تكوين الدولة الإسلامية كان تتخذ من أحد أركان المسجد مقراً لها لكن وبعد أن أصبح الكتاب في تلك المرحلة يمارس نشاطاً ملحوظاً، وبعد أن كثر رواده من الصبيان الراغبين في التعلم بمختلف أعمارهم أمر النبي عليه السلام بتنزيه المساجد وملحقاتها من الأطفال لأنهم وخلال درسه كانوا يعيثون بممتلكات المسجد ويُسودون جدرانها، إلى جانب أنهم وفي الغالب لا يتحفظون من النجاسة، ويسببون كذلك بصراخهم الإزعاج للمصلين والمعتكفين بالمساجد، ومن هنا بدأ التفكير في فصل الكتاب مكانياً عن المسجد بإنشاء غرفة ربما كانت ملاصقة له أو في مكان عام آخر بعيد عنه، مع الحرص على احتواءها على مصلى وميضأة من أجل تعليم الأطفال الوضوء والصلاة⁶.
لقد استمرت هذه القاعدة بإلحاق الكتاب بالمسجد أو بأي منشأة معمارية أخرى طيلة العصور التالية من الحضارة الإسلامية، فالمعروف أن كل المنشآت المعمارية ترتبط في تكوينها المعماري بوظيفتها وما تؤديه من خدمات، فيزداد تكوينها تعقيداً وتكثر ملحقاتها كلما ازدادت وظائفها وتقل وتتوقع حسباً لذلك، ومن هنا وبحسب ما يؤديه الكتاب من وظائف فلا بد أن يكون من أبسط المنشآت المعمارية تكويناً، لدرجة أن البُناة وأولي الأمر أدركوا أن وضع الكتاب كمنشأة مستقلة ضمن نسيج المدينة الإسلامية المعماري هو أمر ربما يفوق وظائفه ودوره فيها، لذا فمن المستحسن وضعه كملحق لعمارة أخرى أكبر وأشمل غالباً ما كانت قريبة في وظائفها من الكتاب، كأن تكون مسجداً أو مدرسة أو زاوية، وفي أحيان أخرى ألحقت الكتابات بمنشآت تختلف عنها في الوظيفة كأن تكون ملحقة بالأسبلة والخانقاوات والقباب والوكالات، ولم تكن علاقة هذه الكتابات بالمنشآت الملحقة بها إلا من خلال استغلال مساحة محددة جانبي أو علوية من هذه المنشآت⁷.

ويبدو أن بساطة وظيفة الكتاب وتخطيط المساحة التي يحتاجها سهل عملية إلحاق هذا المبنى بمنشآت أخرى لأنه لا يفرض عليها الخروج على نسق التخطيط الاصلي أو إضافة ملحقات جديدة، فهو كان يشغل أي مساحة لا يحتاجها هذا المبنى بحيث يمكن استغلالها في وظيفة التعليم.

ورغم ذلك فقد وُجدت في مختلف أقاليم الدولة الإسلامية كتاتيباً مستقلة ببنائها، على أن ذلك كان في الغالب نشوراً عن القاعدة المعروفة في أن يكون الكتاب بناءً ملحقاً لا مستقلاً، وخلال العصور التي تلت قيام الدولة الإسلامية الأولى في المدينة المنورة أستمّر عمل الكتاتيب كما تعارف عليه المسلمون الأوائل، وإن اتخذ في بعض الفترات أشكالاً ومسميات مختلفة كانت تصب في نفس الخانة وتؤدي نفس الوظيفة، ففي العصر المملوكي مثلاً عرفت هذه المنشأة بمكاتب الأيتام والتي خصصت بالدرجة الأولى للأيتام من أطفال المسلمين وأُضيف إليهم الأطفال الفقراء، وقد كانت هذه المكاتب تقوم مقام المدارس الابتدائية إذا وضعنا في الاعتبار أن المدارس كانت تقوم بأدوار الجامعات آنذاك، ومن هنا كانت هذه المكاتب تجسد أدواراً اجتماعية بالدرجة الأولى حرص السلاطين والأمراء والأغنياء على إقامتها، وكانت غالباً ما تُلحق بمجمعات معمارية تشمل السبيل والضريح والمكتبة إلى جانب ملاحق أخرى تمثلت في غرف لسكن الطلبة والمعلمين والملاحق الخدمية كالمطبخ ودورات المياه⁸، كما عرفت الكتاتيب بالمكاتب، وانقسمت إلى قسمين رئيسيين : المكاتب الأهلية أو الخاصة وهي التي اتخذها البعض ممن وجدوا في أنفسهم القدرة على ممارسة التعليم كحرفة يزاولونها ويتقوتون منها، حيث يتم تعليم الصبيان هناك مقابل أجر معلوم يُدفع لهم، أما القسم الثاني فهو المتمثل في المكاتب العامة التي حرص بعض الأمراء والسلاطين وذوي الجاه على إقامتها كصدقة يُراد منها مرضاة الله تعالى، وكان التعليم فيها مكفولاً بدون أجر لعدة شرائح من المجتمع كالأيتام والفقراء وأبناء الجند، وكان القائمون على تلك المكاتب يُجرون عليها أموالاً كثيرة من أجل ضمان استمرارها في تأدية وظائفها العلمية والاجتماعية⁹.

وفي بلاد المغرب الإسلامي عُرف الكتاب هناك كمؤسسة اجتماعية بعد الفتح الإسلامي بفترة بسيطة، فبعد استقرار المسلمون هناك في بداية النصف الثاني من القرن الهجري الأول وبناء مدينة القيروان على يد القائد عقبة بن نافع الفهري عام 50هـ/670م قاموا بإنشاء الدور والمساجد، واتخذوا لأطفالهم كتاتيباً بسيطة في بنائها يلتقون فيها لقراءة وحفظ القرآن الكريم¹⁰، وقد وجدت آنذاك إقبالا كبيراً من قبل الأهالي الذين دفعوا بأبنائهم إلى تلك المؤسسة من أجل تنشئتهم على الدين الإسلامي، خصوصاً وأن الكتاب كان يوفر إلى جانب مهامه المذكورة تعليم الأدب والكتابة وتهيئة الصبيان لمواصلة تعليمهم فيما بعد بمؤسسات تعليمية أكبر، وقد انتشرت الكتاتيب بعدئذٍ بشكل كبير جداً في

بلاد المغرب والأندلس، وربما ما ساعد على انتشارها بهذا الشكل انتعاش مهنة المؤدب أو المعلم التي مارسها عدد كبير جدا من المثقفين بغرض الارتزاق منها، فكانت المهنة المرغوبة والأكثر انتشارا في المجتمع هناك، حيث أتخذ كل مؤدب غرفة ملحقة ببيته أو بأحد المنشآت العامة مكاناً لمزاولة مهنته، وصار المؤدب الناجح في عمله رجلاً مرغوباً تتخطفه العشائر والمدن ليكوم المؤدب والمعلم لأبنائهم، ووفروا له المكان الملائم لمزاولة عمله، ومن هنا نجد أن الكتاتيب لاقت انتشاراً واسعاً ليس في المدن فحسب وإنما في القرى والمناطق النائية والتي حرص أهلها على تزويد أبنائهم بأهم ما افتقدوا إليه هم في حياتهم، ألا وهو التعليم¹¹.

العاملون بالكتاب:

كان الكتاب كمنشأة صغيرة يتميز بقلة العاملين به، وأهم هؤلاء العاملون هو المؤدب الذي يقوم بتعليم الأطفال في المكاتب ويطلق عليه أحياناً اسم المعلم أو الفقيه. وقد اجمعت المصادر التاريخية على ضرورة توافر مجموعة من الشروط والصفات الخاصة بالمؤدب وهي في مجملها ان يكون من اهل الخير والاحسان والأمانة والعفة وأن يكون حافظاً لكتاب الله تعالى وفيه أهلية لتعليم القرآن، وكان المؤدب يتقاضى راتباً يختلف من كتاب الى آخر وذلك وفق عده معايير من أهمها عدد الطلاب الذين يشرف عليهم وكذلك مكان الكتاب.

بالإضافة الى المؤدب كان هناك شخص يسمى العريف، وكان يساعد المؤدب في تعليم الأيتام والإشراف على حضورهم للدروس، وعادةً ما كان يُشترط فيه نفس الصفات التي عليها المؤدب. بالإضافة الى هذين الوظيفتين كانت هناك وظيفة أخرى غير منتشرة في الكتاتيب بشكل عام في العالم الاسلامي وهي وظيفة ما يسمى بعالم الخط العربي، ومن خلال هذا المسمى نستطيع أن نستنتج أنه كان يقوم بتعليم الاطفال الخط وطرق كتابة الكلمات والحروف¹².

الكتاب وأدواره الاجتماعية :

كانت الكتاتيب تمثل مدارس المرحلة الاولى، ولم تكن مدارس عادية تقتصر على التعليم المجاني للأطفال، بل كانت ذات مميزات خاصة جعلت منها منشأة حقيقية للرعاية الاجتماعية، فهي لا تقبل ابناء الاثرياء والقادرين ولكنها تقتصر على قبول الاطفال من الايتام والفقراء، كما كانت تمنحهم

المرتبات والجريات الشهرية والأكل والملبس صيفاً وشتاءً وفي كل المناسبات الإجتماعية والدينية، ومن هنا نستطيع أن ندرك مدى فاعلية هذه الخدمات في المدن الإسلامية وانتشارها .

لقد مثل الكتاب في العمارة الإسلامية أول حلقة من حلقات سلسلة الرعاية الإجتماعية، فهو يبدأ باستقبال الاطفال في سن الخامسة ويوفر لهم التعليم المجاني وما يحتاجونه من طعام وملبس ويرفع عناء اعالتهن عن كاهل اسرهم الفقيرة، فاذا ما بلغ الطفل الحلم وكان قد حفظ القرآن الكريم ونال قسطاً من معرفة مبادئ العلوم العربية والحساب انتقل الى الحلقة الثانية من خدمة الرعاية الإجتماعية وهي المدارس، لذا كان الكتاب هو المنشأة التي تحول دون ان يضيع الطفل في زحمة الحيا ليتمه أو عجز الموارد الاقتصادية لأسرته عن توفير حاجاته الأساسية¹³.

الكتاتيب بمدينة طرابلس القديمة :

عرفت ليبيا نظام التعليم بالكتاتيب منذ الفتح الإسلامي لها، وقد انتشر هذا النظام بشكل واسع جداً في جميع مناطق البلاد وأعتبر أول درجات السلم التعليمي الديني على وجه الخصوص، بالإضافة إلى أدواره في نشر الثقافة بمختلف فروعها بين الناس، وكانت هذه المؤسسة إلى جانب بعض المؤسسات العلمية الأخرى منارةً تخرج منها معظم علماء ونوابغ البلاد بالرغم من بطء عجلة الحركة العلمية بها في أغلب العصور الإسلامية على امتدادها الزمني، وقد اعتبرت تلك المؤسسة بمثابة أسلوب تقليدي متوارث عن السلف، وكانت تمثل البداية الأمثل لرحلة التحصيل العلمي والذي كان غالباً ما يُستكمل بعد إتمام الدراسة في الكتاتيب والزوايا والمدارس المحلية في المنارات العلمية المعروفة آنذاك كالأزهر والزيوتونة وجامعة القرويين وغيرها، وكان الطلاب وبعد استكمالهم لدراساتهم هناك يعودون إلى البلاد لممارسة الأنشطة المختلفة العلمية منها والسياسية وحتى الدينية، فكان لهم دور كبير في دفع عجلة العلم والثقافة بالبلاد، وغرس الدين الإسلامي وتعاليمه السمحة في قلوب الأهالي، إلى جانب دورهم القيادي في مقاومة الجمود الفكري الذي أبتلي به العرب والمسلمين في عهود الانحطاط والعزلة، ومن خلال الإطلاع والاستقصاء التاريخي لجل علماء ليبيا الذين قاموا بتلك الأدوار المهمة لابد أن نلاحظ قطعاً أن جلهم كانوا من إفرازات التعليم الأهلي والذي كانت الكتاتيب أولى درجاته¹⁴.

ولعل أهمية هذه المؤسسة تدفعنا إلى التساؤل عن الشكل المعماري الذي كانت عليه والذي عُرفت به داخل ليبيا، وفي هذا السياق لابد من القول أنه وكما هو الحال في سائر الأقطار الإسلامية لم يكن لها نمط معماري موحد، فالجانب الوظيفي لهذه المنشأة طغى على جل الجوانب الأخرى، وأصبح إيجاد مكان لأداء وظيفة الكتاب لا يرتبط في ذهن القائمين على ذلك بأي شكل معماري، ويظهر ذلك جلياً في القرى والمناطق الصحراوية النائية والتي اتخذت فيها الساحات وبيوت المعلمين والمساجد وغيرها مكاناً لتعليم الصبيان، وفي أحيان أخرى كانت تُبنى في القرى وبعض المدن عُرفاً كانت تُلحق بالمساجد أو تُبنى بشكل مستقل، وكانت في الغالب متسعة بعض الشيء لتتسع لأكثر عدد من المتعلمين، وكانت في العادة تؤثث بحُصر يجلس عليها الطلاب، وتزود أحياناً بمصطبة لجلوس المعلم كي يتمكن من رؤية كل من أمامه، وتزود أيضاً الغرف بأرفف لوضع المصاحف وبعض الكتب، كما أن العملية التعليمية كانت تتم فيها عن طريق كتابة الطلبة للآيات القرآنية على ألواح خشبية يقومون بعد ذلك بحفظها لثمسح بعدها كي تُكتب آيات أخرى، كل ذلك كان يتم تحت إشراف المؤدب أو المعلم الذي كان يصوّب الأخطاء ويعاقب أحياناً المخطئ ويكرّم المُصيب بعدة أساليب كانت معروفة في نظام التعليم بالكتاتيب¹⁵.

وفي مدينة طرابلس وكما هو الحال بباقي أقاليم البلاد عُرف الكتاب كمؤسسه علمية ذات أدوار اجتماعية منذ الفتح الإسلامي للمدينة، حيث تذكر المصادر أن بعض العلماء والمشايخ الذين قَدِموا للمدينة من أقطار المغرب الإسلامي واستقروا بها ومارسوا مهنة المؤدب واشرفوا على تعليم أعداد غير يسيرة من أبناء المدينة، والذين ساهموا بدورهم فيما بعد في دفع عجلة الحياة الثقافية خلال أحلك الظروف التي مرت بها البلاد بشكل عام ومدينة طرابلس بشكل خاص¹⁶.

والحديث هنا عن الجانب المعماري للكتاب خلال الفترة الزمنية التي سبقت فترة الحكم العثماني للمدينة بشكل خاص هو أمر يخضع غالباً للتكهنات، وذلك في ظل عدم وجود أي نموذج من تلك الكتاتيب التي مارس فيها أولئك المشايخ والمعلمين مهنة التدريس إبان تلك المرحلة، ولابد أن المساجد كانت في البداية هي المكان الأمثل الذي يمكن أن يحتوي داخله ذلك النشاط العلمي، وحتى بعد أن انفصل الكتاب عن المسجد مكانياً للأسباب المذكورة سابقاً فإننا نجد أنه لم يبتعد كثيراً عنه وظل مرافقاً له، يجاوره أحياناً ويعلوه أحياناً أخرى، هذا بالنظر إلى وضع كتاتيب المدينة الباقية والتي يعود

جلّها إلى العهد العثماني، والتي أرى شخصياً أنها لم تتغير عما كان سابقاً نظراً إلى أن فكرة وجود الكتاتيب بالمدينة وأماكنها هي فكرة لها علاقة بالموروث الثقافي لسكانها ولم يخضع يوماً إلى وضع سياسي معين مرت به المدينة، فدخل البلاد ككل تحت سيطرة الدولة العثمانية لم يغير من الواقع شيئاً في هذا المجال، حيث استمرت الكتاتيب بوضعها الاجتماعي والعلمي وكذلك المعماري الذي عرفته قبل ذلك، تجاور المساجد أو تعلوها، وتتميز بالبساطة التامة في معمارها بما في ذلك الجوانب الفنية المختلفة، حتى أن الدراسة الميدانية المعمارية لتلك الكتاتيب لا تحوي إلا معلومات قليلة في ضوء بساطة تكوينها وعدم احتوائها على ما يمكن أن يشد انتباه الدارس للجوانب المعمارية والفنية بها، بالإضافة إلى عمليات التجديد التي طالتها بالكامل ولم تُبقِ أي ملامح أصلية يمكن أن يُستدل بها حتى على تاريخ إنشاءها، هذا الجانب الذي لا يمكن أن نقرب من معرفته إلا من خلال الدراسة التاريخية للمساجد التي ألحقت بها تلك الكتاتيب، وحتى هذا الجانب لا يُجدي كثيراً لو رجحنا أن جُل تلك الكتاتيب لم تُبنَ في زمن واحد مع المساجد التي تتبعها وإنما أُضيفت إليها في فترات لاحقة.

وتحوي مدينة طرابلس القديمة حالياً العديد من الكتاتيب الملحقة بعدة مساجد، وهذه الكتاتيب بسيطة في تكوينها المعماري وهي تقريباً على نفس النمط، ولا تعدو كونها غرفاً بسيطة متسعة بعض الشيء أُعدت فقط لأداء وظائفها المنوطة بها، ونذكر من تلك الكتاتيب أهم الأمثلة داخل مدينة طرابلس القديمة بروزاً وهي كما يلي :

كُتّاب مسجد سالم المشّاط :

يقع جامع الشيخ سالم المشّاط بالقرب من خزان المياه الرئيسي، وتطل واجهته الشمالية على شارع سالم المشّاط وواجهته الغربية على زنقه سالم المشّاط، وهو يوجد على هضبة أعلى من مستوى الشارع، ويحتوي على مسجد ومقبرة عامة وضريح المؤسس ومقبرة خاصة، ويقول عنه أحمد النائب الانصاري أنه توفي بطرابلس عام 1493م ودفن بداخلها، لذا فإن الجامع برمته يمكن أن يكون قد بُني قبل هذا التاريخ الذي توفي فيه، كما ذكر الشيخ سالم النشاط أيضاً الشيخ عبد السلام بن عثمان في كتابه الاشارات والمتوفي في سنة 1726م، حيث قال :- "منهم الشيخ سيدي سالم المشّاط وقبره بداخل سور المدينة مما يلي سور البحر قريب منه مشهور"¹⁷ .

يُعتبر هذا الجامع من الجوامع الكبيرة نسبياً في المدينة القديمة بطرابلس، وهو يحوي بيت صلاة بالإضافة الى مسجد صغير الى جانبه، إضافة الى أنه يتمتع بوجود مئذنة إسطوانية البدن أعتبرت من أهم نماذج المآذن القديمة التي تعود الى بدايات العصر العثماني، بالإضافة الى وجود الميضاة وأماكن للاستحمام وضريح خاص بالمؤسس وأضرحة أخرى، هذا الى جانب وجود درج يصعد منه الى الدور العلوي حيث يوجد الكتاب .

يقع هذا الكتاب أعلى المسجد وهو عبارة عن حجرة متسعة تقع في الدور العلوي من المسجد ويوصل إليها باب جانبي يقع بالجدار الغربي للمسجد ويطل على زنقة سالم المشاط، وهذه الغرفة كغيرها من الكاتيب خالية من أية مميزات معمارية أو فنية كما هو الحال بمبنى المسجد ككل (شكل رقم 1) .

كتاب مسجد حورية :

يطل مسجد حورية الذي يحوي هذا الكتاب على زنقة جامع الدروج بمنطقة قوس الصرارعي ضمن محلة البلدية بالمدينة القديمة، ويسمى أيضاً بمسجد الميلادي، وهو عبارة عن مبنى صغير يتكون من قاعة للصلاة ومكان للوضوء، بالإضافة الى حجرة كبيرة تستعمل ككتاب لتحفيظ القرآن الكريم، وسمي بهذا الاسم نسبة الى رجل يدعى حوريه كان مدرساً بهذا الكتاب¹⁸.

إذاً فهذا الكتاب من النوع الأرضي وهو على عكس غيره من الكاتيب يعد من المكونات الأساسية للمسجد، فعند الدخول من الباب الرئيسي للمسجد تقابلنا غرفة كبيرة مستطيلة الشكل تطل على الصحن الرئيسي للمسجد بجوار الميضاة والتي يقابلها بيت الصلاة، وهي كالعادة خالية من أي ملامح معمارية أو فنية (شكل رقم 2).

كتاب جامع محمود الخازندار :

يقع جامع محمود في منتصف مدينه طرابلس القديمة تقريباً ضمن محلة الحارة الكبيرة، وتطل واجهته الرئيسية الشمالية الشرقية على شارع جامع محمود، والواجهة الشمالية الغربية على زنقه السراعي أما الواجهة الجنوبية فتطل على شارع محمد زريق .

أنشأ هذا الجامع محمود الخازندار عام 1091هـ/1680م¹⁹، وقد اكتسب هذا اللقب عندما كان أميناً للخزانة في عهد والي طرابلس محمد حداد الأناضولي 1678م، وقد أشار اليه أحمد النائب الأنصاري في كتابه المنهل العذب بأنه أنشأ الجامع المعروف بداخل مدينة طرابلس، كما أنشأ مصلى آخر للعيد

بجوار هذا الجامع وأوقفه عليه، الى جانب كثير من الاوقاف الاخرى التي أوقفها أيضاً على هذا الجامع²⁰.

ومعمارياً يعتبر هذا الجامع رغم صغر مساحته من الجوامع المهمة في مدينة طرابلس القديمة والتي تمثل العهد العثماني الاول، وهو من النوع الليبي الذي يتميز بسقفه ذو القبيبات الصغيرة المحاذية، ومئذنته الإسطوانية، كما أنه يحتوي على بيت للصلاة وميضأة في الخارج وكتّاب في الدوري العلوي من هذا الجامع، وفنياً فهذا الجامع لا يخلو من بعض اللمسات التي اضيفت اليه لتزيد من جماليته. يقع الكتّاب بالدور العلوي للمسجد، وهو عبارة عن رواقين يطلّان على صحن المسجد بعقدين نصف دائريين يرتكزان على أكتاف جانبية وعمود أسطواني في الوسط، ومساحة هذين الرواقين ضيقة نوعاً ما لكنها تؤدي الغرض الوظيفي من إنشاءه (شكل رقم 3).

كُتّاب مسجد الحطّاب :

مسجد الشيخ الحطّاب أحد المساجد الصغيرة بمدينة طرابلس القديمة، ويقع في وسط المدينة وتحديداً في محلة كوشة الصقّار في نهاية زنقة كفالة، وهو يُنسب الى الشيخ محمد بن محمد بن عبد الرحمن الحطّاب المولود عام 1496م والمتوفي في طرابلس عام 1547م، ويُقال أن الجامع بكل محتوياته بُني بعد وفاة هذا الشيخ تكريماً له²¹.

مبنى الجامع ككل صغير نسبياً، وهو يحتوي على بيت صلاة صغير وعلى ميضأة وضريح، هذا الضريح كان يحوي قبر الشيخ الحطّاب وقبر آخر .

اما الكتّاب فهو مُلحق بالمسجد المذكور ولكنه منفصل عنه مكانياً وهو من النوع الأرضي وليس العلوي، حيث يقع إلى الغرب منه ويفصله عنه طريق ضيق يؤدي إلى زنقة أخرى تُعرف بزقة كفالة المؤدية الى سوق الحرّارة، والكتّاب عبارة عن غرفة مستطيلة متسعة بعض الشيء ومجددة كلياً، يقع خلفها غرفة أصغر كانت مخصصة لسكن المدرسين، أما تاريخ إنشاء هذا الكتّاب فهو غير معروف تحديداً، غير أن المؤكد أنه أنشأ بعد فترة طويلة من بناء المسجد المجاور المُنشأ في النصف الثاني من القرن 16م، أي بعد دخول البلاد تحت الحكم العثماني بفترة وجيزة، وأن هذا الكتّاب استمر بتأدية وظيفته كمكتب لتعليم الأولاد حتى عام 1952م عندما ضمته وزارة التعليم آنذاك ليصبح مدرّة لتحفيظ القرآن الكريم وتعليم مبادئ النحو والفقه²².

كُتَاب مسجد بن طابون :

ويقع يقع مسجد بن طابون بشارع قوس المفتي بمحلة كوشه الصفار، ويُقال أن ابن طابون الذي يُنسب إليه هذا المسجد أصله من مدينه تاجوراء بالقرب من طرابلس، ويُعتبر المسجد معمارياً من المساجد ذات الطراز الليبي المتميز بقبابه الدائرية والذي انتشر بناؤه بطرابلس في القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين، أي أن المسجد برمته من المساجد المشيدة في أوائل فترة الحكم التركي²³، وهو في عموميه مسجد بسيط جداً صغير الحجم يخلو من الزخارف ويتكون من بيت صلاه صغير وحجرة الميضأة وحجرة الكتاب، وغالباً فإن الكتاب يعود إلى نفس الفترة الزمنية نظراً لوقوعه أعلى المسجد بمدخل منفصل يقع ضمن نفس الكتلة البنائية، فالمبنى ككل يقع بشارع قوس المفتي، ولكن مدخل الكتاب يقع في الواجهة الجنوبية للمبنى ويطل على زنقة ضيقة تعرف بزنقة الكانوني بجوار ميضأة المسجد، حيث انه وبمجرد الولوج من هذا الباب يقابلنا سلم حجري يقود إلى غرفة الكتاب المستطيلة التي تعلو بيت الصلاة بالمسجد المذكور، وهي أيضا تخلو من أي ملامح معمارية أو فنية .

بالإضافة إلى ذلك توجد العديد من الكتابات الأخرى والتي لا تختلف عما سبق ذكره من النماذج من الناحية المعمارية والتي تتميز خصوصا في بساطة التكوين المعماري إلى جانب وقوعها كملاحق لمساجد، تجاورها أحيانا وتعلوها أحيانا أخرى، نذكر من أبرزها كتاب مسجد الصقلاني (شكل رقم 4) وكتاب مسجد بن الطبيب (شكل رقم 5) اللذين يقعان بسوق الحرارة، وكتاب مسجد بن صوان (شكل رقم 6) وكتاب مسجد النخلي اللذين يقعان بكوشة الصفار، وكتاب مسجد الدروج (شكل رقم 7) بشارع قوس الصرارعي، وكتاب مسجد الزرقاني بحومة غريان .

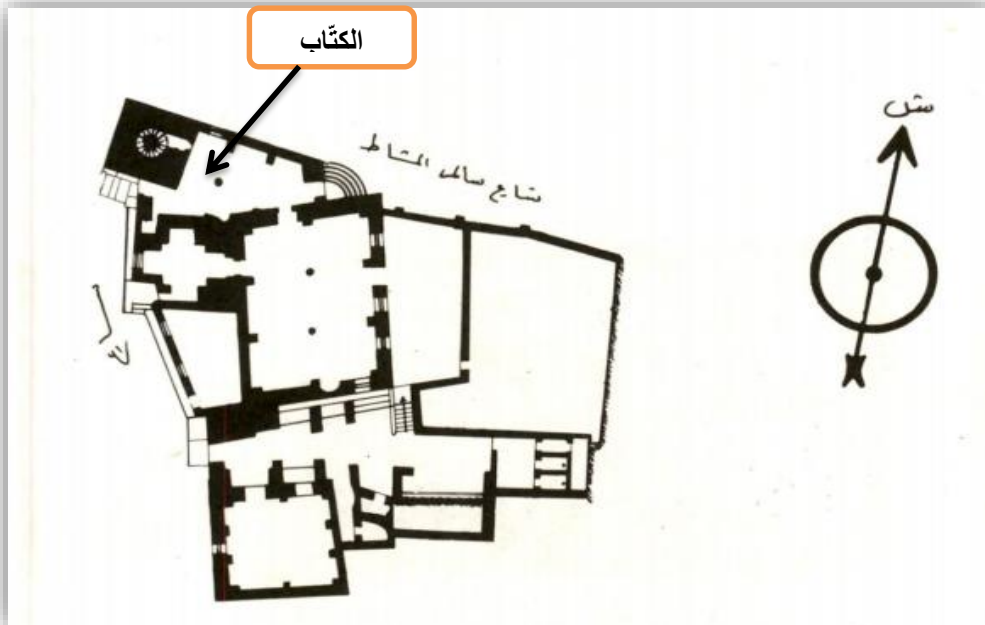
الخلاصة :

في ختام هذه الدراسة يمكن استنتاج ما يلي :

■ فيما يخص الكتابات ومعمارها فالدراسة استنتجت أنها من العماائر الإسلامية البسيطة في تكوينها، والتي لا تحتاج الى كثير من التفاصيل المعمارية لأداء وظائفها، لذلك فإنها لم تلقَ ذلك الاهتمام المعماري الذي عرفته المنشآت الأخرى .

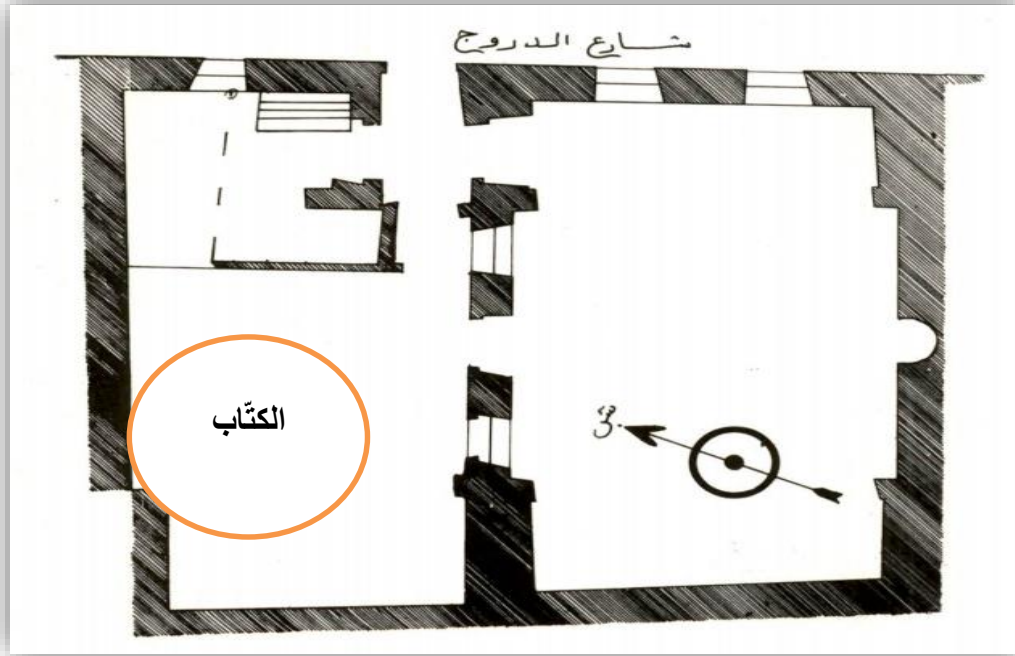
- لقد استحقت الكتاتيب وضعها ضمن منشآت الرعاية الاجتماعية لما كانت تقوم به من أدوار في الأنشطة اليومية لسكان المجتمع، وأيضاً الرعاية التي كانت توفرها لهم والمتمثلة في الجانب التعليمي والتثقيفي للسكان وأبناءهم والابتعاد بهم عن الوقوع فريسةً للأمراض الاجتماعية .
- من خلال دراسة نماذج هذه المؤسسة في المدينة القديمة بطرابلس تبين أنها لم تخضع أبداً لنظام تخطيطي معين، وأنها كانت تركز على الجوانب الوظيفية التي تؤديها بغض النظر عن الحيز المكاني الذي تتم فيه، فالكاتيب لا تتعدى كونها غرفة واحدة ملحقة بجامع يستقبل فيها المعلم أو الملقن أو الشيخ الأطفال لتحفيظهم القرآن الكريم وتدريبهم بعض العلوم البسيطة المتعلقة به، وذلك من أجل تهيئتهم للدخول الى المدارس والزوايا فيما بعد، وهذا هو حال تلك المنشأة في مدينة طرابلس القديمة .

الأشكال

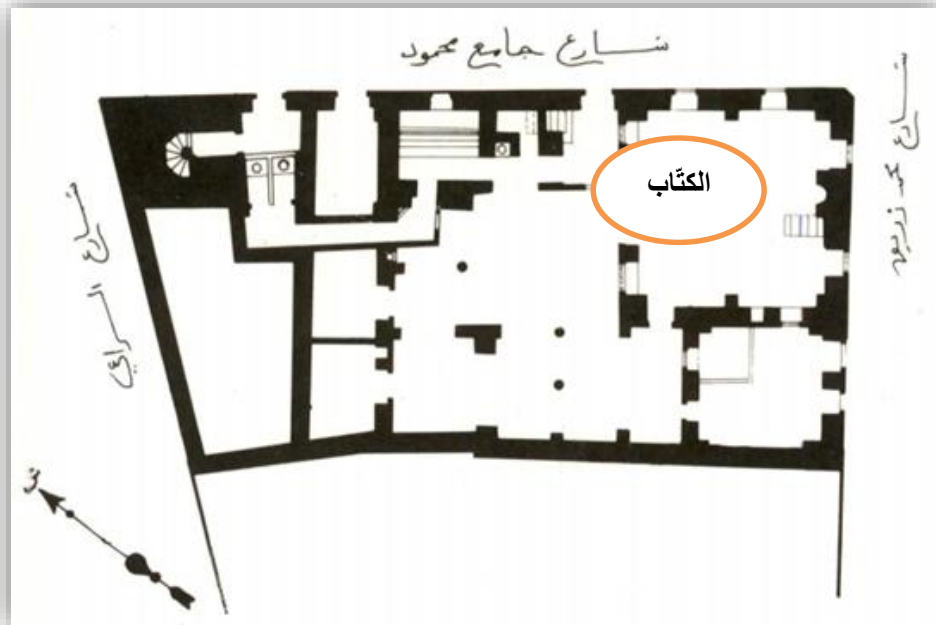


شكل رقم 1

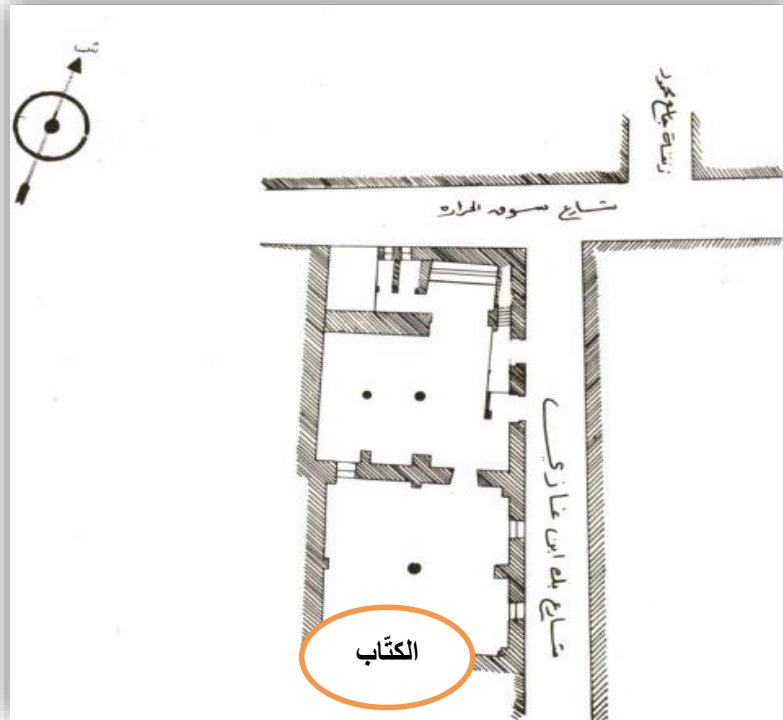
مخطط جامع الشيخ سالم المشاط (موضع الكتاب)
عن : شقوف وآخرون، ص 44 (بتصرف الباحث)



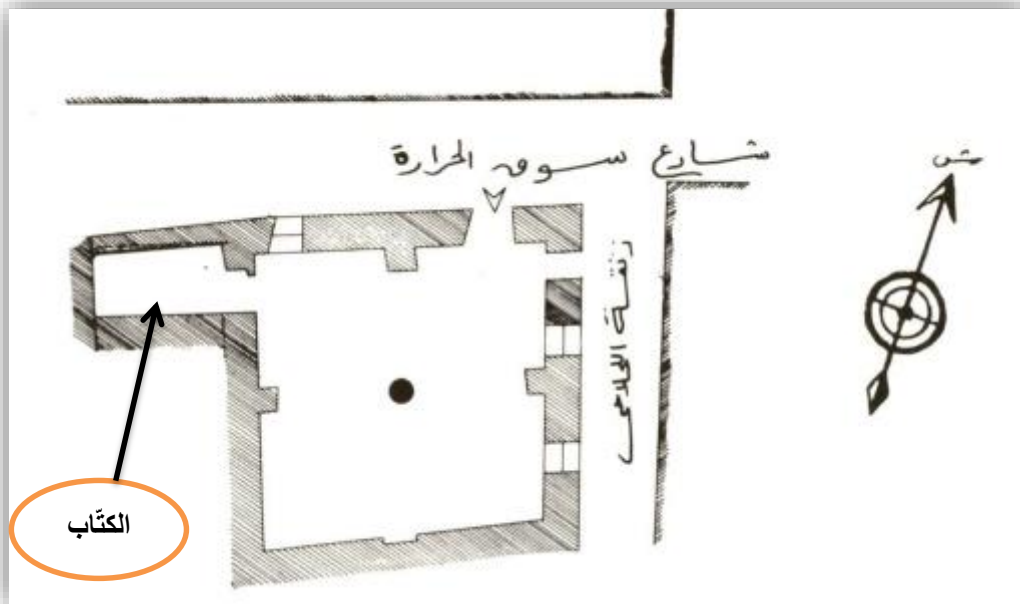
شكل رقم 2
مخطط مسجد وكتاب حورية (موضع الكتاب)
عن : شقلوف وآخرون، ص 145 (بتصرف الباحث)



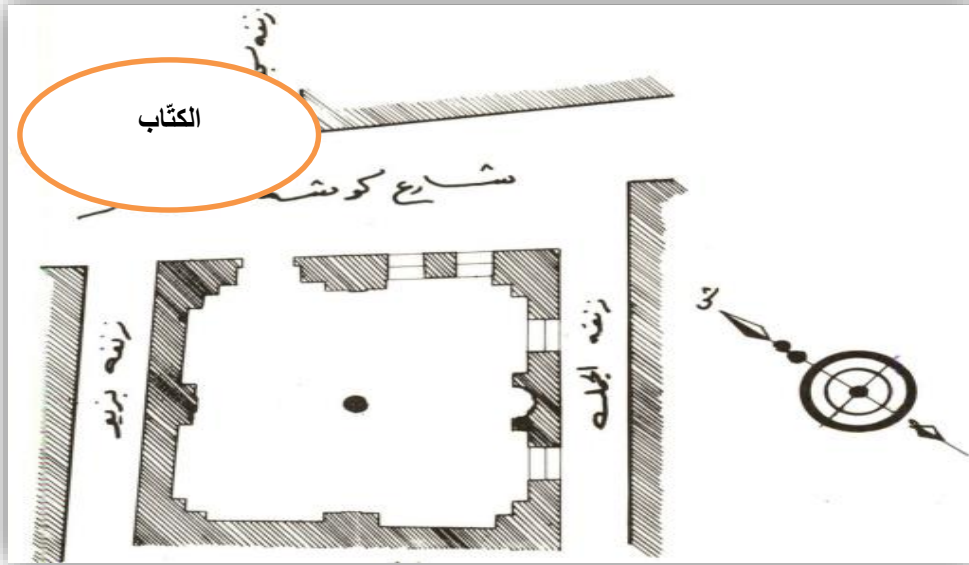
شكل رقم 3
مخطط جامع محمود الخازندار (موضع الكتاب)
عن : شقلوف وآخرون، ص 74 (بتصرف الباحث)



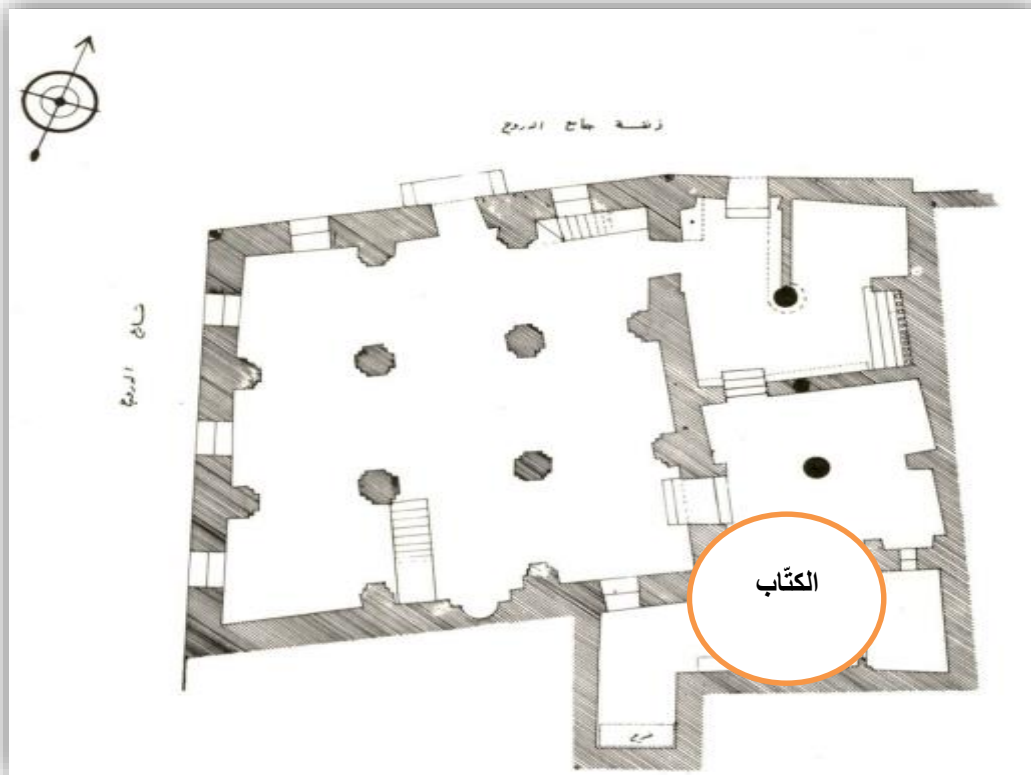
شكل رقم 4
مخطط مسجد الصقلاني (موضع الكتاب)
عن : شقوف وآخرون، ص 95 (بتصرف الباحث)



شكل رقم 5
مخطط مسجد بن الطبيب (موضع الكتاب)
عن : شقوف وآخرون، ص 119 (بتصرف الباحث)



شكل رقم 6
مخطط مسجد بن صوّان (موضع الكتاب)
عن : شغلوف وآخرون، ص 129 (بتصرف الباحث)



شكل رقم 7
مخطط جامع الدروج (موضع الكتاب)
عن : شغلوف وآخرون، ص 69 (بتصرف الباحث)

الهوامش:-

- 1 ابن منظور، لسان العرب، مج5، ط8، دار صادر، بيروت، 1968م، ص217..
- 2 مصطفى إبراهيم، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، ب-ت، ج2، ص 781.
- 3 الطاهر الزاوي، مختار القاموس، الدار العربية للكتاب، طرابلس، 1981م، ص 522 .
- 4 عبد الله العمري، تاريخ العلم عند العرب، دار مجدلوي للنشر والتوزيع، عمان-الأردن، 1990م، ص18.
- 5 محمد الكوني بالحاج، التعليم في مدينة طرابلس في العهد العثماني الثاني وأثره على مجتمع الولاية، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، طرابلس، 2000م، ص32.
- 6 أحمد مسعود عبد الله، التواصل العلمي بين طرابلس وتونس في العهد الحفصي، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، طرابلس، 2007م، ص123.
- 7 محمد سيف النصر أبو الفتوح، منشآت الرعاية الاجتماعية بالقاهرة حتى نهاية عصر المماليك، أطروحة دكتوراه مقدمة الى قسم الآثار-كلية الآداب-جامعة أسيوط، 1980م، ص 448.
- 8 محمد عبد الستار عثمان، نظرية الوظيفية بالعمائر الدينية المملوكية، مرجع سابق، ص144-145.
- 9 خالد عزب، تراث العمارة الإسلامية، دار المعارف، القاهرة، 2002م، ص 33 .
- 10 بشير التليسي، الاتجاهات الثقافية في بلاد المغرب خلال القرن الرابع هـ/العاشر م، أطروحة دكتوراه منشورة، جامعة محمد الخامس، منشورات الشركة المغربية للطباعة والنشر، الرباط، 1998م، ص 345 .
- 11 عثمان الكعك، مراكز الثقافة في المغرب من القرن السادس عشر الى القرن العشرين، جامعة الدول العربية، القاهرة، 1985م، ص52.
- 12 محمد سيف النصر أبو الفتوح، مرجع سابق، ص 452.
- 13 نفس المرجع، ص 431-432
- 14 محمد بشير سويس، أوضاع التعليم في ليبيا، مجلة البحوث التاريخية، العدد الثاني، السنة السادسة والعشرون، 1999م، ص-ص79-81.
- 15 نجاح القابسي، معاهد التعليم في المغرب العربي، جامعة طرابلس، 1991م، ص12-13.
- 16 أحمد محمد العاقل، التعليم الحديث في ليبيا، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، طرابلس، 2005، ص56.
- أيضاً : محمد بشير سويس، مرجع سابق، ص79-80.
- 17 عبدالسلام بن عثمان، الإشارات لبعض ما في طرابلس من مزارات، مكتبة الفرجاني، طرابلس، ب.ت، ص14.
- 18 مسعود شقلوف وآخرون، موسوعة الآثار الإسلامية في ليبيا، ج1، مصلحة الآثار، طرابلس، 1980م، ص145.
- 19 بلدية طرابلس في مائة عام 1870-1970، بلدية طرابلس، 1972، ص75.
- 20 أحمد النائب الأنصاري، المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب، مكتبة الفرجاني، طرابلس، 1961م، ص 252.
- 21 عبدالسلام بن عثمان، الإشارات لبعض ما في طرابلس الغرب من مزارات، منشورات مكتبة النجاح، طرابلس، د.ت، ص24.
- 22 مسعود شقلوف وآخرون، مرجع سابق، ص55
- 23 مسعود شقلوف وآخرون، مرجع سابق، ص 58